

بي الى قاعة كل ما فيها مصنوع من حجارة الزمرد البراقة النفيسة ، والشمس
تغمرها باشعتها ، والموسيقى تصدح في جنباتها بانغامها الساحرة ، والهواء
ما حولنا مشبع بالطيوب . فامس يدها بيدي فاشعر بسعادة محرقة . اشعر
ان ناراً سحرية سرت في عروقي . فاطوق خصرها بيدي فتهمس في اذني
« ليس هنا . سر بنا . » فندخل قاعة وردية كل ما فيها من العقيق تسود
في جوانبها ابهة تسلب الرشد ، فأخر ساقطاً على الارض ، واول ما اشعر به
فجأة ان يديها تطوقان جسمي ، وانفاسها تغشي وجهي . واسمعها تهمس
في اذني قائلة « اهلاً وسهلاً بك ، يا حبيبي ! قبلي ! قبلي ايضاً !
ايضاً »

نظرتُ من مقعدي فاذا بالنجوم تتألق امام عيني وتحتسلي الى عاصفة
الانوار . . .

نمتُ على المقعد فايقتني الشرطي فعدت قسراً الى الحياة وآامها . . .



شكوى ونجوى

الى اية حين ارسل الشعر شاكياً؟
وتطلب نفسي من زماني صداقة
تخط الرزايا رحلها عند خافق
وقشي على اثر اللبالي التي غدت
أزرح قطب النفس عن مستقره
أ ذلك ذني ، يا زمان ، بانني
ولي حسنة ، يا زمان ، كثيرة
'خلقت' ، ولي نفس تجول لدى الهلى
فهما ترامت بي يدك ، فاني
على انها دنيا . اكمل زمانه ،
ولا بد في دنياي التي زمانيا

فلا تحسبوا اني اصبتُ بجنة
فذلك دأبي منذ ديت وشيمة
مقان شدوت الامس حياً بذكرها
اناخت عوادي الدهر فيها رحلها
اعل نفسي بالقوافي تارة
اذا جنني ليلي وبت مناجيا
شيت عليها ان ذكرت بلاديا
فاصحت ابكي اليوم تلك المغانيا
غداة تعدت طودها والروايا
وطوراً تراني شاخص الطرف ساهايا

واحث مطايا الفكر نحو ديارهم
واذكر اوطاني وللعين ادمع
غداة سطا دهري فقص جناحيا
وفي القلب ناراً ان تذكرت اليا

أقلب طرفي في محيطي فلا أرى
رويدكم ، يا قوم ، فالآل في ضني
تطول لياليهم الى حد أنهم
رويدكم ، يا قوم ، فالجوع قد سطا
رويدكم ، يا قوم ، فالوطن الذي
كافي بسوريا وقد طال عهدا
كافي بلبنان وقد نطج السهي
يشق عليه ان يرى كل نازح
هنالك خلف البحر ارض بعيدة
افكر في ما قد غشاها من الاسمى
العلي أن لا بد للقمم الذي
فكم نكبة كانت سبيلاً الى العلى ،
نذم الدواعي ان دهتا وربما
فما هي الا كالغيوم اذا انجلت
من القوم الا خالي البال لاهيا
ينادون . هلاً تسمعون المناديا !
يظنون ان الدهر صار لياليا
وعم فاعمى النائمات البواكيا
تدفق منه الخير قد صار خاليا
على مضمض الايام تخشى التلاشيا
وعيناه تجناز البحور الطواميا
سقاء زلالاً ينكر اليوم ساقيا
ادير اليها كل حين لحاظيا
فانني عنان الفكر جدلان باكيا
عراه خسوف ان ينير الدياجيا
وكم يستطيب الماء من كان صاديا
اذا رحلت عنا مدحنا الدواهيا
تخاف جواً مشرق الوجه صافيا
« رشيد ايوب »

أنت عاجز

في سكون الليل جلست الى وحدتي حزينا ، مفكراً في حال قومي ووطني
في سكون الليل نظرت من خلال الظلام الكثيف علي أرى بصيص
امل ينعشي فلم ابصر الا ظلاماً دامساً يزداد ادلهاماً ووحشة كلما امعنت
النظر اليه . وتلمست خوافي المستقبل بيد الامل فعادت يدي فارغة خائرة
رفعت عيني الى السماء من حيث يأتي العون فرأيت ابوابها مغلقة والصمت
حارسها ، وهي تنظر نحوي بوجه عابس وترمق الكون بعيون النجوم الوقحة
ولا أثر فيها للرحمة .

حولت طرفي الى اخواني الناس . . . ولم تك الا هنيهة حتى عاد طرفي
حسيراً . فاغضيت علي القذى .

في سكون الليل أغمضت عيني على قذاها وجلست صامتاً أفكر في
حال قومي .

ألا ، ما اهل الحياة في مملكة الصمت ! وما أفضح ما يقاسيه الساكت رغماً !



في سكون الليل - ليل التراخي والعجز - جلست صامتاً ، أنظر في قلبي الى مشهد لا يقوى العيان على حجبهِ ، ولا البعد على سترهِ هنالك في مكان قصبي عن عيني ، قريب من نفسي -- في مكان ندعوه وطناً ، ويستحي ان يدعونا ابناءه رأيت قومي خاشعين مضنكين ، وقد احاقت بهم جيوش الخوف والهَم والضعف واليأس والموت واختتمهم جراحاً ، ولا مهرب لهم منها ، ولا معين لهم عليها .
هو الجحيم ما قد رأيتهُ - جحيم الهول والفناء قد انشقت عنه الارض فاندلعت منه أسنة الملائك لا تبقي ولا تذر

أطبق الروح عيني بصيرتي فاتصل بسمعي أنات يأس وصرخات هول وهتاف استغاثة أليم - تلك اصدااء آلام يتكبدها اهلي وحشجة نفوس يلفظها قومي . هي اصوات قلما توءثر في مسامع النازحين لبعدهم عنها ، بل قلما يشعر بها القساة لانهم صموا آذانهم دونها ، بل لا يبالي بها الا من كانت له حماسة للانخراط في المعركة المحتدمة بين قومي والفناء

لم يحمَ قد وطيس قتال كهذا في تاريخ الاحزان والحروب . على انه في هذه الدقائق التي يقسم بها القضاء حظ أمتي ويضع حداً فاصلاً بين حياتها ومماتها ، فاما يقيها ، واما يغنيها ، أنظر ، فأجد من حولي اناساً من لحمي ومن دمي واقفين يتفرجون غير مباليين

ألا ، كيف يستطيع الانسان ان ينظر الى اهله واحبائه وقومه يموتون ويسمع باذنه أناتهم ولعناتهم دون أن يأتي بشيء !

ألا ، كيف ينام المرء ملء عينيه آمناً وهو يعلم ان له أخاً يزدرد المرارة ويفض بريقه الناشف !

وكيف يجلس المهاجر المتراسي مرتاحاً ، ساكن البال ، غير مشغول بقصوره وتبكيته ضميره مضطجماً على فراشه الوثير ، متظاهراً بالطمأنينة ، متمتعاً بليانها ، لا يفكر بشيء ؟

ألا يسمع عويل الاطفال الجائعين وأنين الشيوخ المدنفين ؟ ألا يشعر بالايدي الممدودة ، والارواح المناجية ، والعيون الصارخة ؟

ألا يرى دموع الامهات يعلنن بها الاطفال ، يرحين الفرج والموت بالباب ؟ ألا يعلم ان قومه يأكلون التراب ؟

أقول هذا صامتاً ، وأصغي الى اصدااء نفسي فأسمع بالقرب نجيباً ووجيباً ، وزفرات وأنات ، ولا ادري الا بعد حين أن الباكي هو انا ، وأن العويل عويلي يشق جوانحي ويمزق صدري ، واني انتحب لحال قومي ، وابكي على نفسي مستاء من ضعفي ، مشعراً بقصوري وعجزتي امام هول التكبّة . . .

في سكون الليل سمعت باذني رنة المطرقة على مسامير الصليب فذرفت دمعي وانا انظر الى « الجالجلة » من بعيد

رأيت سوريا تقاد الى الصلب عريانة ، مهانة ، تُتجلد بسياط السخرية وتكلك باشواك العار وتشرب من مرارة الهلاك .

كم مرة سقت سوريا الى الصلب فاستشهدت على عيون التاريخ . وكم مرة صعدت الى المحرقة فكانت ذبيحة تكفير عن وجودها . وكم مرة دُفنت حية في أعماق الارماس . ولكن طفاة الفاتحين وفي طليعتهم نبوخذنصر القاسي وفي موءخرتهم تيمورلنك العاتي لم يعبثوا بسوريا بعض ما عبثت بها يد النكبة الان ، ولم يدقموها بسنابك خيلهم كما أدقتها وطأة وحش الجوع والويل .

من هام الجبال وقاع الوديان ، من السهول المطمئنة والحزون الناشزة ، من مراتع الحضارة ومسارح البداوة ، من كل مدينة وقرية في سوريا يسير موكب الويل على درب الصليب متجهاً نحو « جلجلة » الموت يسوق امامه بسياط الجوع شعوب سوريا - كبيرها وصغيرها ، غنيها وفقيرها ، موءمنها وكافرها ، عالمها وجاهلها ، صالحها وشريرها .

على درب الصليب يسير حاضر سوريا ومستقبلها . وعلى هذا الدرب يقف بين الآونة والاخرى كل من يزرع تحت اثقال صليبه . يقف وينظر الى الجهات الاربع مستغيثاً وليس من يناوله مندبلاً ليمسح به عرقه الدموي ويلاه ! ما اكثر الرازين ، الواهين ، الساقطين تحت صليبيهم الثقيل ، وما أقل الرسل المخلصين !

في هذا الموكب يسير رجال المستقبل الى الفناء وفيهم اعظم امة جديدة . فيهم بناء التاريخ ، فيهم غطاريف الحرية ، فيهم الانبياء وابناء الانبياء الذين عينوا ان يكونوا رسلاً لدين جديد في عصر لم يأت .

في هذا الموكب تسير اشباح الغابرين تتكلم بلسان الحاضرين ، ناطقة بلسان التوجع والالين .
وما أقل السامعين !

.....

في سكون الليل على درب الصليب رأيت المصيبة تدغم الماضي في المستقبل ، وسمعت خيالات الغابرين ، بل اصوات الحاضرين ، بل ارواح الآتئين تنادي وتستغيث ، فدبت في دمي رعشة حادة حين رأيتهم يقفون افراداً للراحة عند الحضيض فيقول كل هتافه ويمشي ولا محيب الا الصدى الرهيب حين يردد وراءهم ما قالوه . وهالك بعض ما سمعته

- انا يوسف بن يعقوب . انا الذي خزنت القمح للناس واطعمتهم في سني الجوع السبع . فما للناس لا يطعموني ما يسد رمقي في هذه السنين؟
- انا سليمان الحكيم - انا ابن داود وامرأة اوريا - انا ابن القوة والجمال . كانت خزائني تضيق بالذهب والجواهر ، وسفني تزرع بما عليها من النفائس . وها قد جعت الان واستسهلت الاستعطاء . ألا من يتصدق على الملك الشحاذ؟

- انا يهوديت الارملة غادة بيت فلوى . سحرت اليفانا قائد الاشوريين بجمالي وقتلته وبددت جيشه لاحفظ شعبي واصون عرضي . ولكني الان ابيع هذا وذاك لانال كسرة من الخبز
- انا مريم ام يسوع . مات طفلي البارحة جوعاً . ورأيت يقاسي في

الشقاء فينفخ الروح في الارواح والالم في الاجساد والظلمة في الابصار
ثم يسط جناحه الاسودين الكثيفين في عرض الجو ساتراً بهما ما على وجه
العبراء من الويل متلقفاً أنات البائسين واستغاثات المنكوبين ، حائلاً دون
وصولها الى عرش الله وآذان المحسنين

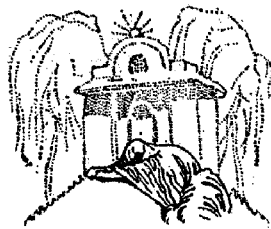
وفي الاسفل تحشرج الارواح وتشنج الاجسام وتراكم الجثث ويمد
المدفون يد الضراعة صامتين

وبعيداً - ما وراء البحار اخوان اولئك البائسين يرتعون في أحسن
الراحة وبجبوحة الهناء ويستعذبون لذة البقاء فهل يسمعون هتاف الويل
في سكون الليل ؟

وهل يمدون يد الرحمة لطرد النعمة ؟ ام ينسلون ايديهم تبرءاً من دم
البار ؟ أم يأتون القبر باكراً - متأخرين - بالطيوب ؟

•••

كل شيء ابتداءً بالسكوت فاذا كان مقدرآ ان ينتهي به أجل سوريا
الان فما اجدر قومي ان يموتوا في عجزهم ساكتين



مهده من الالم ما ليست عنده عذابات الصليب بشيء .
- انا مريم المجدلية تلميذة الناصري . كان في سبعة شياطين قبل ان
يلمسني المعلم ، ولكن وطأتهم لم تكن شديدة كوطأة شيطان واحد احتلمه
الان يدعى الجوع .

- نحن العذارى الخمس العاقلات . قد جفّت مصايحنا من الزيت
ويست افواهنا من الجوع ، ولا نزال نتنظر قدوم العريس . فابن العريس
الموت ؟

- انا يهوذا من اسخريوط . الجوع أقسى من الحياه . رحمة ياناس
وان لم اكن استحق الرحمة . لم يبق معي سوى هذه الثلاثين من الفضة
التي بعث بها المسيح . أما من يبعثني بها رغيفاً ؟ أعلل الرغيف أثمن من المسيح ؟
- انا غاليلوبال السوري امبراطور الرومان ، ولكنني اليوم جوعان .

خذوا تلحي والصلولجان وجواري الحسنان واطعموني ولو على سبيل الاحسان
- انا ابو العلاء ضرير المعرة . تصدقت عليكم بشعري وفلسفتي . فهل
من يتصدق برغيف علي . . . على الشيخ . . . الاعشى . . . الشحاذ

هذا بعض ما سمعته حين رأيت الماضي والمستقبل يسيران على درب
الصليب . ثم سمعت طرق المسامير ثم ساد السكون
كل شيء ابتداءً بالسكوت فهل ينتهي به كل شيء ؟

•••

في سكون الليل البهيم المخيم فوق سوريا يصعد شيطان الويل من هاوية